حوار مختلف

بقلم جوانا حين 27.9.2018

غالباً ما أسأل عن سبب بقائي في إسرائيل ما دمت أعارض سياساتها العنصرية، وجوابي الدائم: أنا ببساطة أعيش هنا. الانتقال إلى مكان آخر ليس بخيار ولن يغيّر شيئًا. هذا لن يلغي الظلم القائم في أي مكان في العالم. أنا نادرًا ما أشارك في لقاءات المصالحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين أو بين العرب واليهود. أنا لا أشارك في مسيرات السلام أو في الوقوف على تقاطعات الطرق حاملة لافتات تنتقد الحكومة. لقد قمت بتغطية العديد من المظاهرات والمسيرات خلال عملي في الصحافة وتلقيت نصيبي من خيبة الأمل في عملية السلام المتداعية.

ولكنني استيقظ مع بزوغ الفجر مرة في الأسبوع للسفر إلى حاجز ترقوميا (Tarkumia) الذي يفصل بين الضفة الغربية وإسرائيل. أقوم بالتطوع في جمعية الطريق إلى الشفاء(The Road to Recovery) ، والتي تُعني بنقل الأطفال الفلسطينيين المرضى من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى المستشفيات الإسرائيلية. تأسست الجمعية من قبل يوفال روط (Yuval Roth) في عام2005 ، مواطن إسرائيلي قُتل أخاه على يد مسلحي حركة حماس في عام1993 ، والتي تضم حوالي 600 متطوع من جميع أرجاء البلاد. يقوم المتطوعون بنقل الفلسطينيين إما من الحاجز إلى المستشفى أو إعادتهم بعد انتهاء الزيارة إلى المستشفى أو العلاج. يتم التواصل مع كل متطوع قبل ليلة من الموعد حتى يُلقّن التعليمات النهائية. وفي بعض الأحيان تلغى الرحلات إذا لم تستطع العائلة الحصول على التصاريح اللازمة لعبور الحاجز. نعم... أمر الرفض يأتي بتلك البساطة!

في المرة الأولى التي قدت بها السيارة إلى هناك كانت الساعة 5:30 صباحًا، وكانت قد بدأت الشمس في البزوغ فوق تلال يهودا. (Judea) وكان هناك ابن آوى ي يقطع الشارع المغبر ذي اللون الفضي الخافت بتؤدة. وحالما قمت بالاستدارة يسارًا باتجاه مدينة الخليل بالتزامن مع تحليق سرب من طيور الزرزور (a flock of starlings) في السماء، رن هاتفي الخلوي وكان المتصل من شركة أوتوران، وهي شركة متخصصة في تعقب السيارات المسروقة أنا مشترك في خدماتها، وسألني :هل تدرين أن هناك من يقود سيارتك في مناطق السلطة الفلسطينية؟ فأجبت ضاحكة :إنها أنا.

عند اقترابي من نقطة اللقاء، ذهلت من الحافلات الصغيرة والشاحنات المنطلقة بسرعة جنونية لنقل العمال الفلسطينيين من الحاجز المكتظ والصاخب. اقتربت إلى هناك بسيارتي الفولكس فاغن الصغيرة حيث كان المئات منهم واقفين عند الدوار في تجمعات صغي،رة أو مفترشين الأرض يدخّنون ويحملون أكياسًا بلاستيكية تحتوي على الخبز والزيتون واللبنة.

أعترف أنه في المرة الأولى كنت خائفة قليلاً وكنت أتساءل كيف سأتعرف إلى الأشخاص الذين أنا على موعد معهم؟ كل ما كان لدي هو اسمٌ أُرسل إلي برسالة قصيرة في الليلة السابقة، سالم أبو حامد، طفل عمره 10 أشهر. قمت بالتجوال ببطء عبر الساحة الكبيرة متجنبة التحديق في الرجال، متسائلة إن كان هذا هو المكان الصحيح. وفجأة، لاحظت سيدة متشحة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها تقف وحيدة على الجانب الآخر من الساحة، وكانت تلوّح لي بحماسة وبابتسامة لطيفة. تلاقت عيوننا وكانت تحمل طفلاً بين ذراعيها. إلى جانبها كانت حقيبة كبيرة ملقاة على الأرض المليئة بالغبار. قمت بركن السيارة بجانب الرصيف المتهشّم الرصف وخرجت من السيارة. شعرت بالإحراج، فهذا هو اللقاء الأول بين شخصين غريبين كليًّا. تصافحنا وسألتها :سالم؟ مشيرةً إلى الطفل، فهزت برأسها للأسفل مما يعني نعم، وهي تحزم كرسي الطفل في المقعد الخلفي لسيارتي.

توجهنا إلى مستشفى شيبا (Sheba Hospital) في ضواحي تل أبيب، حيث كان سالم يتلقى العلاج في الأشهر القليلة السابقة. استغرقت الرحلة حوالي الساعة في ذلك الوقت من النهار. جلست الأم في الرحلة في المقعد المجاور للسائق، تحرك حبّات المسبحة ذات لون الأزرق الباهت بأصابعها، وحالما خرجنا من الطريق السريع باتجاه المستشفى ووصلنا إلى المدخل شرعت في البكاء. واصلت أنا القيادة وحتى لو كنت أتكلم العربية فلن أعرف ما الذي يتوجب قوله في مثل هذا الموقف. توقفت بجانب محطة صغيرة يتوجب على الفلسطينيين عبورها على الأقدام قبل الدخول إلى نطاق المستشفى. كل السيارات الأخرى كانت تمر من الجانب الأيسر. قامت المرأة بمسح دموعها بظهر يدها وأخذت حقيبتها وغادرت السيارة. واصلت القيادة عبر حاجز التفتيش إلى الجهة الأخرى وانتظرتها، وكان ما زال سالم جالسًا في كرسيه المحزم في المقعد الخلفي للسيارة. وخلال الانتظار التفت نحوه مبتسمة وكان هو ينظر إلى باستغراب، وقلت له" :كل شي تمام"، عبارة تذكرتها فجأة !وكنت قد تعلمتها في دورة للغة العربية منذ عد سنوات.

أخذ طفلك إلى المستشفى أمر صعب أدرك هذا لأنني مررت بنفس التجربة مع ابني دانيال لعدة سنوات. فقد ولد مع مرض وراثي نادر. دفعتني فحوصات الدم والجراحات والاستشارات وغيرها من الإجراءات أحيانًا، إلى خبط رأسي بمقود السيارة قبل انطلاقنا إلى المستشفى.كانت تلك المواعيد ترعبني، وكرهت تلك الرحلات إلى المستشفى والانتظار الطويل في الممرات والأسئلة، والأسوأ من هذا كله الشعور بالجهل التام. رغم ذلك، كنت محظوظة لقدومي إلى المستشفى في سيارتي الخاصة، دون الحاجة إلى استخراج تلك التصاريح والوقوف على حواجز التفتيش منذ ساعات الفجر الأولى. كنت أحيانًا آخذ دانيال بعد الانتهاء من زيارة المستشفى إلى مدينة تل أبيب للقيام بأمر مُسلٍ أو لتناول البوظة للترويح عنه، وأحيانًا أخرى كنا نتوجه مباشرة نحو المنزل.

حالياً أصبح دانيال بالغًا وأنا أقوم بنقل أطفال آخرين، وغالبًا ما يكون أولئك الأهالي غير متكلمين باللغتين العبرية أو الإنجليزية. ولغتي العربية محدودة، رغم أنني حاولت تعلمها مرتين. لعل المشكلة تكمن بعدم وجود شخص أتدرب معه على التحدث بالعربية بين الدروس، وحتى أنه لا وجود لشخص يستطيع الإجابة على أسئلتي الملفوظة بشكل أخرق، مثل، كيف حالك؟ هو أنتِ ساكنة هون؟ ولهذا السبب، من الصعب تخيل دخولي بحوار كامل مع أحد المسافرين اللذين أقلهم. وعادة أتلعثم ببضع جمل بسيطة قبل أن أغرق في الصمت مجددًا. أنا لا أعرف كيفية التعبير عن مدى تعاطفي معهم أو معرفة ماذا يشعرون خلال الرحلة، وربما لا حاجة لهذا كله. وربما هذا نوع مختلف من الحوار الحقيقي، الحوار بالإشارات. في كلتا الحالتين، لقد منحتني جمعية الطريق إلى الشفاء فرصة ذهبية لتحسين لغتي العربية.

بعد أسبوع، قمت برحلة أخرى. عند الساعة 5:45 صباحًا، كان هناك ازدحام كبير للحافلات الصغيرة والشاحنات المتوجهة إلى ساحة الحاجز. انتظرت دوري وقمت بالدوران ببطء حول الساحة، باحثًا عن طفلين أحدهما في الحادية عشر من عمره والثاني في السابعة. أحدهما ينتظرني مع والده مرتديًا قناعًا طبيًا لونه أخضر. أوقفت السيارة على عتبة الشارع، وأنزلت زجاج الشباك واتكأت عليه ونظرت إليهما وابتسمت. قلت لهما" صباح الخير"، ولا يهمني إن لفظتها خطأً، فرد علي الرجل بالعبرية وأعطاني اسمه واسم الصبي، وتأكدت من أنهما نفس الأسماء في الرسالة القصيرة التي استلمتها في الليلة السابقة، وكانت الأسماء مطابقة بالفعل، محمد أبو شان ووالده نعيم. وبينما كان نعيم يساعد ابنه بالصعود إلى المقعد الخلفي للسيارة، اقتربت منا سيدة ترتدي حجابًا أخضر ومعها طفل. كانت هذه السيدة محتجزة في حاجز التفتيش وكانت مضطربة لتأخرها. كان وجه الطفل مغطى بقناع طبي وكان يعتمر على رأسه قبعة بيسبول بيضاء وزرقاء، والتي كانت تغطي شعره وعينيه في آن واحد.

نعيم ابن الأربعين عامًا يتحدث العبرية، واندمجنا بسهولة في الحوار. أخبرني أنه وعائلته يسكنون في قرية قريبة، وأنه استيقظ مع ابنه عند الساعة 4:30 فجرًا ليعبرا حاجز التفتيش ويكونا على الموعد عند الساعة5:45 ، لكي لا يجعلاني أنتظر. يعاني محمد من سرطان الدم (Leukemia) وينتظر عملية زرع، وهو حاليًا يسافر كثيرًا إلى مستشفى شيبا (Sheba Hospital) للقيام بالفحوصات الطبية اللازمة. وأنه لا يذهب إلى المدرسة أو يقابل أصدقاءه، وذلك لأن خطر العدوى كبير جدًا، وهو يقضي معظم يومه بمشاهدة الصور المتحركة على الهاتف الخلوي. يعمل نعيم كعامل جبص في مدينة بئر السبع، ويدفع له رب العمل فقط عن الأيام التي يعمل فيها، وليس لديه إجازات مرضية، أو إجازات خاصة، أو حتى أيام عطلة. وخلال هذا الحوار كنت أفكر في الأيام التي أقل فيها دانيال من وإلى المستشفى عندما كان طفلاً وكم كان رب عملي متفهمًا للوضع.

لا يبدو منح بضع ساعات أسبوعيًا لأعمال التطوع أمرًا كبيرًا بالنسبة لي، وذلك لأن لدي قدوة رائعة أقتدي بها : كانت عمتي شيلا (Sheila) قد تطوعت لسنوات طويلة في تكية (hospice) في مدينة بلاكبول البريطانية، وكانت تقوم بترتيب ملاءات الأسرة وتنسيق الزهور وتوزيع أكواب الشاي على النزلاء. وهي دائمًا تقول لي أن للابتسامة تأثير سحري(A smile goes a long way) ، حتى وهي في جيل الثانية والتسعين من عمرها. علمتني عمتي شيلا مدى قوة تأثير الأعمال البسيطة في الحياة اليومية. أنا لا أستطيع تغيير الوضع القائم في إسرائيل، ولا أستطيع تفكيك الحدود أو تحقيق السلام الدائم في العالم، ولكنني أستطيع المساهمة بأعمال بسيطة في تغيير بعض أحوال الناس.

نعيم شخص مهذب ويجيب على اسئلتي بصبر، رغم نبرة صوته المتعبة. هم ما يزالون يبحثون عن متبرع لمحمد. قال لي عندما توقفت عند رصيف مدخل المستشفى لكي يتمكن هو ووالدة الطفل النحيف من إعطاء أوراقهم الثبوتية للحارس المناوب، إن الطريق ما زالت طويلة أمامهم. وعند مروي إلى الجانب الثاني من حاجز التفتيش في المستشفى، كان الطفلان ما يزالان نائمين في المقعد الخلفي.

بعد خمس دقائق، عاد نعيم ووالدة الطفل الآخر إلى السيارة، وأكملنا طريقنا إلى قسم الأطفال في المستشفى. بعد عدة لحظات ستنتهي مهمتي وسيدخل ركابي المستشفى ويختفون، وسأعود وحيدة إلى المنزل. عندما توقفنا عند المدخل الرئيسي للمستشفى، طلبت من نعيم أن يقول لوالدة الطفل الآخر بأنني أتمنى لولدها الشفاء العاجل والعافية. تصافحنا مودعين بعضنا، وعندما قالت لي :شكرًا، أجبتها بالعربية :عفوًا، سررت بلقائك.